المسألة اليهودية، وأشياء أخرى

تبدأ بعض العلاقات بداية مختلفة تمامًا عما تنتهي إليه.

تذهب إلى العلاقة بنية طيبة، بأمل أن يكون الطرف الآخر سندًا ودعمًا، لأنك ترى أنه أقرب إلى أفكارك من الآخرين.

ثم تصدم به، ما رأيته من قرب لم يقربك منه، على العكس، عندما اقتربت أكثر، رأيت بصورة أدق، رأيت فيه كل ما يجب عليك أن تتجنب حدوثه معك.

كان هذا هو باختصار ما حدث مع اليهود.

****

مثل كل نبي وصاحب رسالة يريد أن ينقذ الجميع، كان عليه الصلاة والسلام يرغب أن يؤمن به اليهود، فهم أهل كتاب، وكان عليه الصلاة والسلام يعرف أن ما أنزل على موسى هو من المشكاة نفسها التي نزل عليه منها الوحي، وأنه جاء متممًا وخاتمًا لرسالات من سبقه من الأنبياء.

كان عليه الصلاة والسلام يعرف حتمًا أن تجربة بني إسرائيل كانت بعيدة عن المثالية سواء مع أنبيائهم أو لاحقًا في طريقة تعاملهم مع النصوص الدينية، لكنه كان يطمح بالتأكيد إلى أن يصحح اليهود مسارهم بالإيمان بالنبي الجديد الذي كان مذكورًا في كتبهم.

كانت هناك بشارة تجعله مستبشرًا في ذلك.

وكان يرجو أيضًا، أن يكون ذلك نقطة تحول كبيرة في مسيرة دعوته وطريق رسالته.

لو آمن اليهود به، أو أغلبهم، فإن ذلك سيجعل العالم مختلفا جدًّا آنذاك، وغالبًا ستتراكم تأثيرات ذلك الاختلاف بحيث تغير العالم الذي نعرفه اليوم.

كان المجتمع المدني سيكون موحدًا أكثر، بإمكاناتٍ اقتصادية أقوى، مما قد يجعل قريش نفسها تعيد النظر في موقفها من الإسلام، خاصة أن إيمان أهل الرسالات السابقة بالرسول عليه الصلاة والسلام سيعطي المزيد من المصداقية للرسالة الخاتمة في أعين كفار العرب.

تأثير ذلك كان يمكن أن ينسحب إلى اليهود في أماكن أخرى، خاصة في اليمن وبلاد الشام، وكان دخولهم في الإسلام سيجعل بقية أهل الكتاب ينظرون إلى الرسول الجديد ورسالته الجديدة -كما هو فعلًا- كامتداد للرسالة الإبراهيمية في نسختها الخاتمة المصححة لما سبق، حتى لو رفضوا الإيمان التام بها، فأن النظرة لن تكون إلى الإسلام كما لو كان دخيلًا على الرسالة الإبراهيمية. وهي النظرة التي بقيت سائدة عندهم لقرون تلت، بل حتى اليوم.

هل يعني ذلك أن الأمر كان سيكون سهلًا تمامًا دونما صراعات وتحديات ومواجهات وحروب؟

بالطبع لا، الحياة أكثر تعقيدًا من ذلك، والمصالح تتحكم في كثير من جوانبها.

لكن استغلال الخلافات الدينية سيكون أقل، النظرة إلى المسلمين ستكون أقل حدة.

لو أن ذلك حدث، في تلك البداية المبكرة في المدينة، في الأعوام الأولى للهجرة، لكان كل شيء تغير، حتى عالمنا المعاصر، الذي يحمل تركة التاريخ كله، كان سيكون مختلفًا.

قطعة دومينو واحدة بعينها، كان يمكنها أن تغير مسار قطع الدومينو الباقية.

لكن يهود المدينة -لأسباب كثيرة- لم يختاروا هذه القطعة، بل اختاروا، مرة تلو الأخرى، قطعًا أخرى، وقادت تلك القطع إلى مسار مختلف تمامًا.

كان يمكن ألا يحدث.

تاريخ اليهود في الجزيرة العربية

وجود القبائل اليهودية في المدينة قديم وسابق بالتأكيد على وجود الأوس والخزرج فيها. أما متى بالضبط بدأ هذا الوجود سواء في الجزيرة العربية عمومًا أو في المدينة تحديدًا فهذا أمر مختلف عليه بدرجة كبيرة. المصادر التراثية تورد أخبارًا عن وجودهم في المدينة منذ عهد النبي موسى[1]، برغم العثور على نقوش أثبتت وجودًا لليهود في تيماء في القرن الخامس قبل الميلاد فإن المصادر المعاصرة ترجح أن الوجود اليهودي في الجزيرة مرتبط بتدمير الرومان للهيكل في القرن الأول الميلادي، ومن ثم قمع تمرُّد بار كوخبا ضد الرومان في القرن الميلادي الثاني حيث هاجر الكثير من اليهود إلى شمال الجزيرة العربية واليمن والحجاز[2]. هجرات لاحقة قد تكون ارتبطت بإعلان اليهودية دينًا رسميًّا في مملكة حمير في اليمن مع تهود الملك (ذو نواس) في القرن السادس الميلادي[3].

لا يمكن الجزم أن كل اليهود في الجزيرة العربية بحلول القرن السابع الميلادي كانوا من نسل القبائل اليهودية الأولى التي جاءت للجزيرة، إذ تبقى احتمالات التهود واردة، خاصة مع حدوث حالات تهود جماعية وقت الملك (ذو نواس)[4]، وأخبار عن تهود بطون من بعض القبائل العربية[5].

وبحلول القرن السابع الميلادي، قرن البعثة النبوية، كانت هناك تجمعات سكانية يهودية مهمة في كل من المدينة، فدك، خيبر، تيماء، وكان لهذه التجمعات أثرها الاقتصادي والثقافي المهم بلا شك.

---

[1] المختصر في أخبار البشر: (98/1).

[2] Graetz, H. (2013, July 28). *History of the Jews, Vol. 3 (of 6)*. Project Gutenberg. https://www.gutenberg.org/ebooks/43337

[3] Josephus. (n.d.). *Antiquities of the Jews: Book I*. University of Chicago. Retrieved July 24, 2025, from https://penelope.uchicago.edu/josephus/ant-1.html

[4] Robin, C. J., & Harris, J. (2021). Judaism in pre-Islamic Arabia. In P. I. Lieberman (Ed.), *The Cambridge history of Judaism* (pp. 294–331). Cambridge University Press. https://doi.org/10.1017/9781139017832.011

[5] المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: (12/90-116).

من الآثار الثقافية المهمة، خاصة في المدينة، أن هذا الوجود كان له أثر غير مباشر في تقبل أهل المدينة لدعوة الرسول عليه الصلاة والسلام، من حيث تقبلهم لفكرة التوحيد والرسالات، باعتبار أن اليهود موحدون ويؤمنون برسالة، ومن حيث إن اليهود أنفسهم كانوا يخبرون أهل المدينة أن هناك نبيًّا جديدًا قد حل زمان ظهوره، بل وكانوا يتوعدون العرب أنهم سيتبعون هذا النبي ويقتلون العرب.

قتل عاد وإرم

عنْ سَلَمَةَ بْنِ سَلَامَةَ بْنِ وَقْشٍ، قَالَ: كَانَ لَنَا جَارٌ مِنْ يَهُودٍ فِي بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ قَالَ: فَخَرَجَ عَلَيْنَا يَوْمًا مِنْ بَيْتِهِ حَتَّى وَقَفَ عَلَى بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ، قَالَ سَلَمَةُ: «وَ أَنَا يَوْمَئِذٍ حَدَثٌ عَلَيَّ بُرْدَةٌ لِي مُضْطَجِعٌ فِيهَا بِفِنَاءِ أَهْلِي، فَذَكَرَ الْقِيَامَةَ وَالْبَعْثَ وَالْحِسَابَ وَالْمِيزَانَ وَالْجَنَّةَ وَالنَّارَ».

قَالَ: فَقَالَ ذَلِكَ فِي أَهْلِ يَثْرِبَ، وَالْقَوْمُ أَصْحَابُ أَوْثَانٍ لَا يَرَوْنَ بَعْثًا كَائِنًا عِنْدَ الْمَوْتِ، فَقَالُوا لَهُ: وَيْحَكَ، أَتَرَى هَذَا كَائِنًا يَا فُلَانُ؟ إِنَّ النَّاسَ يُبْعَثُونَ بَعْدَ مَوْتِهِمْ إِلَى جُنَّةٍ وَنَارٍ وَيُجْزَوْنَ فِيهَا بِأَعْمَالِهِمْ، قَالَ: نَعَمْ، وَالَّذِي يَحْلِفُ بِهِ. قَالُوا: يَا فُلَانُ، وَيْحَكَ مَا آيَةُ ذَلِكَ؟ قَالَ: نَبِيٌّ مَبْعُوثٌ مِنْ نَحْوِ هَذِهِ الْبِلَادِ وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى مَكَّةَ، قَالُوا: وَمَتَى نَرَاهُ؟ قَالَ: فَنَظَرَ إِلَيَّ وَ أَنَا أَصْغَرُهُمْ سِنًّا فَقَالَ: أَنْ يَسْتَنْفِدَ هَذَا الْغُلَامُ عُمُرَهُ يُدْرِكْهُ، قَالَ سَلَمَةُ: «فَوَاللَّهِ مَا ذَهَبَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ حَيٌّ بَيْنَ أَظْهُرِنَا، فَآمَنَّا بِهِ، وَكَفَرَ بَغْيًا وَحَسَدًا»، فَقُلْنَا لَهُ: وَيْحَكَ يَا فُلَانُ، أَلَسْتَ الَّذِي قُلْتَ لَنَا فِيهِ مَا قُلْتَ؟ قَالَ: بَلَى، وَلَكِنَّهُ لَيْسَ بِهِ[6].

وقال ابن إسحاق: **(وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن رجال من قومه قالوا:**
إن مما دعانا إلى الإسلام - مع رحمة الله تعالى وهداه لنا - لما كنا نسمع من رجال يهود كنا أهل شرك أصحاب أوثان وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس لنا وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا: إنه قد تقارب زمان نبي يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم، فكنا كثيرًا ما نسمع ذلك منهم
فلما بعث الله رسول الله صلى الله عليه وسلم أجبناه حين دعانا إلى الله وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به فبادرناهم إليه فآمنا به وكفروا به ففينا وفيهم نزلت هذه الآية وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ [البقرة: 89])[7]

لكن الأثر الإيجابي، غير المباشر وغير المقصود، الذي جعل أهل المدينة مهيئين لقبول الرسول اصطدم لاحقًا بموقف متعنت من اليهود في قبول النبي الجديد وفي الاعتراف بنبوته، وبدلًا من أن يحدث الاقبال المنطقي على الإيمان بالنبي الجديد من قبل اليهود، فإن المشركين من الأوس والخزرج هم الذين أقبلوا على الإيمان بالدين الجديد، وعارضه أغلب اليهود في المدينة. النفس البشرية أعقد بكثير من أن يحكمها منطق، ولعل إدراك أحبار اليهود أن هذا النبي الجديد لن يكون تابعًا لهم، وأنه قد جاء برسالة ناسخة لما سبق مما لحقه تحريف قد أسهم في موقفهم المتعنت.

---

[6] المستدرك على الصحيحين: 5764، مسند الإمام أحمد: 15841.
[7] صحيح السيرة النبوية: (57/1).

فلننتبه إلى أن هناك من سادات اليهود وكبارهم من دخل في الإسلام في هذه الفترة، لكن طبيعة الصراع لاحقًا جعلت التركيز ينصب أكثر على عداواتهم وغدرهم، من هؤلاء الذين أسلموا وحسن إسلامهم بل وأصبحوا من كبار الصحابة عبد الله بن سلام وولداه محمد ويوسف، وشقيقه ثعلبة بن سلام، وقد عد بعض الباحثين أكثر من ثلاثين صحابيًّا كانوا يهودًا وأسلموا في حياته عليه الصلاة والسلام[8]، وربما كانت هناك أسماء أخرى لم توثق لعدم وجود حادثة تربط اسمها بها.

*****

جاء الرسول المدينة وهو يدرك بطبيعة الحال أهمية الوجود اليهودي وأهمية إيمان اليهود برسالته أو على الأقل تقبلهم لها.

ولعل وجود أخبار تذكر (نبي آخر الزمان) وأوصافه التي تنطبق على النبي عليه الصلاة والسلام كانت كفيلة بجعل بعض هذه الآمال، تبدو واقعية وعلى أبواب أن تحدث...

لكن كان ثمة موقف مختلف جدًّا ومبكر جدًّا.

بل ربما في أول يوم وصل عليه الصلاة والسلام إلى المدينة.

عبد الله بن سلام: أنت خيرنا، إلى أن تقول شيئًا لا نو افق عليه

تذكرون عبد الله بن سلام، الذي أسلم بعد أن رأى النبي عليه الصلاة والسلام وقال: وجهه ليس بوجه كذَّاب؟

تفاصيل إسلامه في ذلك اليوم تروي لنا الكثير.

وبين سطور هذا الكثير هناك أكثر.

عبد الله بن سلام كان من أحبار اليهود ومن أشرافهم، وما حدث معه في أول يوم إسلام، أول يوم في المدينة يخبرنا في حادثة واحدة عن الموقف المبكر لليهود، الموقف الذي لن يشهد لاحقًا تغييرا كبيرا، بل سيتدهور للأسف.

...)فَرَكِبَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَ أَبُو بَكْرٍ، وَحَفُّوا دُونَهُمَا بِالسِّلاَحِ، فَقِيلَ فِي المَدِينَةِ: جَاءَ نَبِيُّ اللَّهِ، جَاءَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَشْرَفُوا يَنْظُرُونَ وَيَقُولُونَ: جَاءَ نَبِيُّ اللَّهِ، جَاءَ نَبِيُّ اللَّهِ، فَأَقْبَلَ يَسِيرُ حَتَّى نَزَلَ جَانِبَ دَارِ أَبِي أَيُّوبَ، فَإِنَّهُ لَيُحَدِّثُ أَهْلَهُ[9] إِذْ سَمِعَ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلاَمٍ، وَهُوَ فِي نَخْلٍ لِأَهْلِهِ، يَخْتَرِفُ لَهُمْ، فَعَجِلَ أَنْ يَضَعَ الَّذِي يَخْتَرِفُ لَهُمْ فِيهَا، فَجَاءَ وَهِيَ مَعَهُ، فَسَمِعَ مِنْ نَبِيِّ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ....).[10]

(فَلَمَّا هَاجَرَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدِمَ الْمَدِينَةَ وَ أَنَا فَوْقَ فِي نَخْلَةٍ لِي أَجُدُّهَا، فَسَمِعْتُ رَجَّةً فِي الْمَدِينَةِ، فَقُلْتُ: مَا هَذَا؟، قَالُوا: رَسُولُ اللهِ قَدْ قَدِمَ، قَالَ: فَأَلْقَيْتُ نَفْسِي مِنْ أَعْلَى النَّخْلَةِ ثُمَّ جِئْتُ أَحْضُرُ حَتَّى أَتَيْتُهُ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، ثُمَّ رَجَعْتُ، فَقَالَتْ أُمِّي: لِلَّهِ أَنْتَ، وَاللهِ لَوْ كَانَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا كَانَ بِذَلِكَ تُلْقِي نَفْسَكَ مِنْ أَعْلَى النَّخْلَةِ، فَقُلْتُ: وَاللهِ لَأَنَا أَسَرُّ بِقُدُومِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ إِذْ بُعِثَ)[11]

عبد الله بن سلام كان يعمل في بستان له عندما وصل النبي عليه الصلاة والسلام إلى المدينة، كان يخترف لأهله؛ أي يجمع ويجني لهم الثمار، وبينما هو يفعل ذلك سمع بالخبر، الناس يتناقلونه وينادي بعضهم بعضًا، جاء نبي الله، جاء نبي الله...

ألقى عبد الله بن سلام بنفسه من النخلة لكي يرى النبي، حتى هذه اللحظة لم يكن قد آمن بعد به، لكنه أسرع ليراه، كان من أحبار اليهود، وكان يعرف صفات النبي كما وردت في كتبهم. عندما وصل إليه كان ما يزال يحمل سلته التي يجمع فيها الثمار...لكنه لم يكن قد قطف بعد ثمرته الأهم والأثمن، ثمرته التي لن تكفيها سلال الدنيا كلها...

---

[8] يهود أسلموا في حياة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، علاء بكر، مركز بيت المقدس للدراسات التوثيقية.

[9] الضمير يعود على النبي عليه الصلاة والسلام، لأنه نزل عند أخواله من بني النجار، أي بينما كان يحدث أخواله.

[10] صحيح البخاري: 3911.

[11] المعجم الكبير للطبراني: 372.

قالت له أمه عندما عاد، وكانت شاهدت كيف ألقى بنفسه من النخلة، لو كان موسى بن عمران هو الذي جاء المدينة ما كنت فعلت ذلك...

فقال لها، وكان قد عاد وهو يحمل لا الثمار فقط، بل اليقين أيضًا، والله أنا أكثر سرورًا مني لو أن موسى بن عمران هو الذي جاء..

(بَلَغَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَلاَمٍ مَقْدَمُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المَدِينَةَ فَأَتَاهُ، فَقَالَ: إِنِّي سَائِلُكَ عَنْ ثَلاَثٍ لاَ يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا نَبِيٌّ قَالَ: مَا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ؟ وَمَا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الجَنَّةِ؟ وَمِنْ أَيِّ شَيْءٍ يَنْزِعُ الوَلَدُ إِلَى أَبِيهِ؟ وَمِنْ أَيِّ شَيْءٍ يَنْزِعُ إِلَى أَخْوَالِهِ؟ ...فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَمَّا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ فَنَارٌ تَحْشُرُ النَّاسَ مِنَ المَشْرِقِ إِلَى المَغْرِبِ، وَأَمَّا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الجَنَّةِ فَزِيَادَةُ كَبِدِ حُوتٍ، وَأَمَّا الشَّبَهُ فِي الوَلَدِ: فَإِنَّ الرَّجُلَ إِذَا غَشِيَ المَرْأَةَ فَسَبَقَهَا مَاؤُهُ كَانَ الشَّبَهُ لَهُ، وَإِذَا سَبَقَ مَاؤُهَا كَانَ الشَّبَهُ لَهَا " قَالَ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ..).[12]

عرف أنه ليس بكذاب من وجهه، لكن كان عليه أن يسأله، قلبه يخبر بأنه هو، هو الذي كانوا ينتظرون، لكن عقله يريد امتحان قلبه.

سأله ما يعرف أن الجواب لا يكون إلا عند رسول الله.

ورد عليه الصلاة والسلام ما جعل لسانه ينطق ما كان قلبه يقوله منذ أن رأى أن وجهه ليس بوجه كذاب....

لكن عبد الله بن سلام الذي خبر قومه (والنفس البشرية عمومًا)، كان يتوقع ما سيحدث عندما يعلم قومه بخبر إسلامه...

قَالَ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ اليَهُودَ قَوْمٌ بُهُتٌ، إِنْ عَلِمُوا بِإِسْلاَمِي قَبْلَ أَنْ تَسْأَلَهُمْ بَهَتُونِي عِنْدَكَ[13]

فَأَخْبِئْنِي عِنْدَكَ، وَ ابْعَثْ إِلَيْهِمْ فَاسْأَلْهُمْ عَنِّي[14]

أراد عبد الله بن سلام أن يقول اليهود شهادتهم فيه قبل أن يعلموا إسلامه كي لا يهتونه، أي يكذبون ويفترون عليه انتقاصًا منه ومن أهمية شهادته..

فَجَاءَتِ اليَهُودُ وَدَخَلَ عَبْدُ اللَّهِ البَيْتَ،

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «**أَيُّ رَجُلٍ فِيكُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلاَمٍ**»

قَالُوا أَعْلَمُنَا، **وَ ابْنُ أَعْلَمِنَا، وَأَخْيَرُنَا، وَ ابْنُ أَخْيَرِنَا،**

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «**أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ عَبْدُ اللَّهِ**»

قَالُوا: **أَعَاذَهُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ،**

فَخَرَجَ عَبْدُ اللَّهِ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: **أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ،**

فَقَالُوا: **شَرُّنَا، وَ ابْنُ شَرِّنَا، وَوَقَعُوا فِيهِ**[15]

فَقَالَ: «**هَذَا كُنْتُ أَخَافُهُ يَا رَسُولَ اللهِ**»[16]

هذا ما كان يخافه ويتوقعه، وقد حدث.

في موقف بسيط واحد سيظهر تناقضهم.

أولًا: مَن هو عبد الله بن سلام فيكم؟

---

[12] صحيح البخاري: 3329.

[13] صحيح البخاري: 3299.

[14] مسند أحمد: 13868.

[15] صحيح البخاري: 3329.

[16] سنن النسائي الكبرى: 8197.

الجواب أعلمنا وابن أعلمنا وخيرنا وابن خيرنا.
الأعلم والأخير.
وفي ثوانٍ معدوداتٍ تغيَّر الموقف.
بمجرد أن شهد عبد الله بن سلام شهادة الإسلام تغير موقفهم منه.
حدث تناقض فوري بين شهادتهم لهم بالعلم والخيرية وبين موقفهم المسبق من رفض الدخول في الدين الجديد أو تقبله على الأقل.
مجرد أن قال شهادته صار هو الأشر بينهم، أبوه أيضًا أصبح الأشر.
موقف متكرر في حياتنا اليومية، ندين بالولاء لأشخاص ونكيل لهم الثناء والمديح، هذا كاتبي المفضل الذي تربيت على كتبه. هذا هو المفكر الذي صنع رؤيتي للعالم. إلخ.. إلخ، ثم يأتي هذا الكاتب أو المفكر أو العالم بموقف مخالف لما نعتقد أنه الصواب. قد يكون موقفه صائبًا أو لا يكون، لكننا ننسف كل ما قلناه في ثوان. أغلب السلوكيات التي تورط بها اليهود ليست قاصرة عليهم ولا يورثونها في جيناتهم، بل هي سلوكيات بشرية يمكن أن تصبح جزءًا من أسلوبنا في التعامل دون أن ننتبه، ينسحب ذلك على كل نقد جاء به القرآن لسلوكيات بني إسرائيل مع نصوصهم الدينية، هذا يمكن أن يحدث معنا أيضًا. يمكن للبعض أن ينحرف فيفعل مع نصوصنا الدينية ما فعله بنو إسرائيل.
****
هذه الحادثة كانت مبكرة جدًّا.
جزء منها حدث بالتأكيد في أول يوم لوصوله عليه الصلاة والسلام إلى المدينة.
لا نعرف أن كان ما حدث لاحقًا كان في اليوم نفسه، أعني لقاء اليهود بالرسول عليه الصلاة والسلام واختباء عبد الله بن سلام لحين أن ظهر عليهم وهو يقول الشهادة.
لكن من المؤكد أنها كانت مبكرة، في أوائل الفترة المدنية.
وكان هذا الموقف المبكر يشي بموقف متعنت من اليهود تجاه الإسلام، موقف مختلف تمامًا عما كان عليه الصلاة والسلام يطمح له.
ولكي نفهم هذا الموقف علينا أن نتفحص الفروق المهمة بين دخول المشركين في الإسلام، وبين دخول اليهود، أو أهل الكتاب في الإسلام.

إسلام أهل الكتاب: الأمر معقد

قد يبدو للوهلة الأولى أن دخول المشركين إلى الإسلام أصعب من تحول أهل الكتاب إليه، وذلك بسبب أن الاختلاف بين الوثنية وأديان التوحيد أكثر بكثير من الاختلافات ضمن الأديان التوحيدية.
على العكس، فإن ما يبدو سببًا في جعل الانتقال من الوثنية إلى الإسلام صعبًا، هو بالتحديد ما جعل الأمر مع مشركي قريش أيسر على المدى البعيد من يهود المدينة.
كان مشركو قريش -وأكثر مشركي العرب- يتعبدون للأوثان ويتقربون لها، وكان هذا (دينهم) بحسب نص القرآن، لكن هذا الدين، وإن اشتمل على الشعائر، فإنه في الوقت نفسه لم يقدم رؤية للحياة أو العالم، ولا اقترح دورا للإنسان في هذا العالم، كما أن هذا الدين الوثني لم يرتبط بأي منظومة أخلاقية كانت سائدة عند العرب، ولا بقانون ينظم حياتهم، ولم يقدم هذه الوثنية أي سردية لقصة خلق العالم، ومن ثم لم تسهم في الإجابة عن الأسئلة الوجودية الكبرى.

هذا كله أسهم في خلق فراغ روحي عند عرب الجاهلية. العائق الحقيقي أمام اعتناقهم الإسلام لم يكن دينهم الوثني بحد ذاته، بل تمسكًا بما عبده الآباء والأجداد وما عبدته القبيلة التي كانت محور وجودهم والإطار الذي يرون كل شيء من خلاله. هناك كانت العقبة الحقيقية.

مع أهل الكتاب، كان الأمر مختلفًا، دينهم كان مرتبطًا برؤية للعالم، وثمة منظومة أخلاقية قانونية واضحة، وسردية متماسكة عن قصة الخلق وحس مميز بالهوية والهدف من الوجود.

هذا كله كان يقترب بدرجات مختلفة مع ما جاء به الإسلام، وهذا طبيعي ما دام المصدر واحد، الاختلافات كانت بشكل أساسي بسبب حدوث تغييرات في النصوص الدينية السابقة (بعضها طبيعي بسبب مرورها بظروف تاريخية صعبة، أو حدوث تغيير في أثناء النقل الشفوي قبل التدوين، أو بسبب الترجمات من لغة إلى أخرى، وبعضها كان متعمدًا بسبب سيطرة رجال الدين واحتكارهم للنصوص الدينية)، ولكن مهما كانت الاختلافات بين الكتب السابقة والقرآن، فإن المشتركات والتشابهات كانت لا تزال قائمة وبوضوح.

للوهلة الأولى سنعتقد أن وجود المشتركات والتشابهات ستسهل الانتقال والتحول من دين إلى آخر.

لكن هذا غير صحيح، بالمرة.

الانتقال بين ما هو متشابه من العقائد يكون أصعب من الانتقال بين المختلف جذريّا منها.

*****

ظاهرة صعوبة الانتقال بين المعتقدات المتشابهة مقارنة باعتناق معتقد مختلف جذريًّا ظاهرة معروفة تاريخيًّا وقد وجدت من يهتم بدراستها ومعرفة أسبابها. الحديث هنا عن معتقدات دينية متقاربة مثل أن تكون طوائف مختلفة داخل الدين الواحد (الكاثوليكية مقابل البروتستانتية مثلًا)، أو معتقدات سياسية تنتمي إلى نفس المعسكر الشيوعي (الماركسية اللينينيَّة مقابل التروتسكية). على الجانب الآخر، تجد المعتقدات المختلفة جذريّا انتقالًا أيسر (الانتقال إلى البوذية من المسيحية أو إلى الليبرالية من الشيوعية)[17].

هناك عدة تفسيرات نفسية اجتماعية لهذه الظاهرة:

أولًا: تشابك الهوية Identity Entanglement

عندما تكون منظومتان فكريتان متشابهتين جدًّا، فإن التحول من أحدهما إلى الأخرى يشعر المرء وكأنه يرتكب خيانة تجاه ذاته أو هويته الأصلية. الكثير من المعتقدات تصبح مع الوقت جزءًا من الهوية وليست مجرد معتقدات. الاعتراف بوجود خطأ في تفاصيل كانت لصيقة بهويتك يسبب توترًا نفسيًّا وتنافرًا معرفيًّا فعندما تصبح العقيدة جزءًا من هوية الشخص، فإن التشكيك فيها أو التخلي عنها يُشعره وكأنه يفقد جزءًا من ذاته. لا يقتصر الأمر على الاختلاف مع الآراء الأخرى، بل يتم الشعور بها كهجوم شخصي متعمد؛ لذلك يكون التحول بين منظومات فكرية متشابهة أصعب، لأنه يُسلط الضوء على فروق دقيقة، ولكنها متجذِّرة بعمق في الهوية.[18]

---

[17] نتحدث هنا عن الظاهرة، لكن بالتأكيد هناك حالات فردية كثيرة انتقلت بين معتقدات متشابهة.

[18] Brewer, M. B. (1991). The social self: On being the same and different at the same time. *Personality and Social Psychology Bulletin, 17*(5), 475–482.

Tajfel, H., & Turner, J. C. (2004). The Social Identity Theory of Intergroup Behavior. In J. T. Jost & J. Sidanius (Eds.), *Political psychology: Key readings* (pp. 276–293).

ثانيًا: نرجسية الفروق الصغيرة Narcissism of small differences

لاحظ فرويد وجود نزاعات وعداوات بين مجموعات تمتلك الكثير من الصفات المشتركة والمتشابهة، تتدرج هذه العداوات من تسخيف واستصغار كل طرف للآخر، وصولًا إلى حدوث نزاعات دموية بين الطرفين، يمكن ملاحظة هذه الظاهرة في الكثير من المدن المتجاورة التي تمتلك الكثير من المشتركات، ولكن العلاقة بين السكان تكون فيها نوع من المنافسة والاستعلاء المتبادل. الشيء ذاته يمكن ملاحظته في الطوائف الدينية أو فرق كرة القدم أو حتى العوائل التي تتصاهر فيما بينها. من بعيد يبدون متشابهين جدًّا، لكنهم لا يرون أنفسهم كذلك على الإطلاق.

فسَّر فرويد الأمر في الرغبة الفطرية بتكوين هوية متمايزة تضطر إلى التركيز على الفروق الصغيرة لإبراز هذه الهوية وتأطيرها، وهكذا ينتهي الأمر إلى جعل الفروق الصغيرة أهم من المشتركات الكبيرة[19].

ثالثًا: الكلفة الاجتماعية والقبلية:

التحول إلى المعتقد القريب الذي يمتلك مشتركات وتشابهات يعتبر (في العقل الجمعي القبلي) بمنزلة خيانة، بينما الذهاب إلى معتقد مختلف جذريّا يعتبر مغامرة فردية ينظر لها اجتماعيًّا على أنها أقل تهديدًا من التحول إلى المعتقد القريب، الأخطر لأنه الأقرب حسب هذه النظرة، بينما المعتقد المختلف جذريّا لا يعامل هكذا. يشبه الأمر زواج ابن العائلة من ابنة العائلة الجارة التي تنتمي إلى مذهب آخر من الدين نفسه، بينما لو تزوج من أجنبية من دين مختلف تمامًا أو بلا دين فأن العائلة ستكون (في الكثير من الأحيان) أكثر تقبلًا. [20]

رابعًا: الولادة من جديد عبر اعتناق معتقد مختلف جذريّا Rebirth through contrast

المعتقدات المختلفة جذريّا تمنح الشخص الذي يعتنقها قطيعة معرفية وروحية تامة مع المنظومة الاعتقادية السابقة، ويكون بذلك بمنزلة ولادة جديدة بالنسبة إلى الشخص المتحول، حيث يؤمن أن حياته قد بدأت منذ لحظة دخوله المعتقد الجديد الذي مثل له الولادة والخلاص، كل ما يتعلق بالمنظومة الاعتقادية السابقة بكل ما فيها يصبح جزءًا من الماضي المتعلق بشخص آخر.

---

[19] Blok, A. (1998). The Narcissism of Minor Differences. *European Journal of Social Theory*, *1*(1), 33-56. https://doi.org/10.1177/136843198001001004 (Original work published 1998)

Nagle, J., Clancy, MA.C. (2010). Conclusion: The Narcissism of Minor Differences?. In: Shared Society or Benign Apartheid?. Palgrave Macmillan, London. https://doi.org/10.1057/9780230290631_9

McKay, B., & McKay, K. (2021, September 26). *The narcissism of minor differences*. The Art of Manliness. https://www.artofmanliness.com/character/behavior/the-narcissism-of-minor-differences/

[20] Berger, P. L., & Luckmann, T. (1991). *The social construction of reality*.pp144, Penguin Books.

هذا النوع من التحول يكون في بعض النواحي أسهل من الانتقال من منظومة إلى منظومة تمتلك الكثير من نقاط التشابه، لأن هذا الانتقال يحتم استمرار المقارنات بين المنظومتين وهذه المقارنات تنتج توترًا معرفيًّا ونفسيًّا عكس ما يحدث مع حالات القطيعة التامة.[21]

يشبه الأمر دراستك للغة أجنبية تمتلك جذورا مشتركة مع لغتك الأم (مثل العربية والعبرية- أو الإنجليزية والألمانية والهولندية) أو لغات تبادلت التأثير عبر الزمن (مثل العربية والتركية والفارسية) و(الإنجليزية والفرنسية)، في هذه الحالة ستكون المقارنة قائمة ومستمرة تلقائيًّا، لن تترك تمامًا اللغة الأصل بل ستكون حاضرة في ذهنك بالمقارنة، حتى لو لم تكن ترغب بذلك.

على العكس من ذلك، لو درست لغة بعيدة تمامًا عن لغتك الأم، مثل اللغة الصينية، لن تكون هناك مقارنات أو استحضار لما سبق.

*****

هذه العوامل النفسية الاجتماعية تفسر لنا جزئيًّا لماذا كان انتقال أهل الكتاب إلى الإسلام بطيئًا في هذه المرحلة على الأقل. في تلك الفترة، كانت التشابهات بين أديان أهل الكتاب والإسلام أكثر مما نراها اليوم، لأن المحيط العام كان وثنيًّا.

لكن هذه العوامل لم تكن وحدها هي التي جعلت اليهود يتصرفون على النحو الذي فعلوه.
كان هناك ما هو أكثر من ذلك. وهذا الأكثر هو الذي قاد إلى ما وصلت له الأمور.

يهود المدينة: عقلية الأقلية

كان اليهود في المدينة محكومين بعقلية ونمط تفكير محدد، يمكن تسميته بـ (عقلية الأقلية).
وعقلية الأقلية عمومًا، وهذا لا يخص اليهود فقط، تفكر بطريقة مختلفة عن طريقة الأكثريات في غالبية المجتمعات التي تكون فيها أقليات وأكثرية.
ما عقلية الأقلية؟
عقلية الأقلية هي الأنماط المعرفية والعاطفية والسلوكية التي تتطور بين أفراد ينتمون لأقلية (عرقية أو دينية أو ثقافية) ويرون أنفسهم مستهدفين أو متضررين مقارنة بالأغلبية السائدة، وتحفز هذه العقلية زيادة الوعي بالذات، والحفاظ على الثقافة، وتتضمن آليات للدفاع عن الهوية والمحافظة عليها.
عقلية الأقلية تفكر دومًا بأنها مستهدفة، وأن كل من حولها ينوي القضاء عليها، وأن عليها النجاة عبر أي وسيلة.
هناك مكونات أساسية تشكل عقلية الأقلية وأسلوب تعاطيها مع الواقع المحيط:

---

[21] Iyadurai, J. (2020). Religious conversion and personal transformation. In D. A. Leeming (Ed.), *Encyclopedia of psychology and religion* (pp. [if available]). Springer. https://doi.org/10.1007/978-3-030-24348-7_9244

Sandage, S. J., & Moe, S. P. (2013). Spiritual experience: Conversion and transformation. In K. I. Pargament, J. J. Exline, & J. W. Jones (Eds.), *APA handbook of psychology, religion, and spirituality (Vol. 1): Context, theory, and research* (pp. 407–422). American Psychological Association. https://doi.org/10.1037/14045-022

أولًا: الوعي بالهوية (المغايرة): تمتلك الأقلية إحساسًا عاليًا بهويتها الاجتماعية المغايرة للأغلبية المحيطة بها، أو لأي أقليات أخرى قريبة منها، هناك تمايز واضح لديهم بين (نحن) مقابل (هم)[22].

ثانيًا: الوعي المزدوج: تتعايش الأقلية مع هويتين؛ واحدة التي تمثلها وتعرف نفسها بها داخل الأقلية، والأخرى التي تفرض عليها من خلال واقع معيشتها مع الأغلبية[23].

ثالثًا: استراتيجية البقاء **survival strategy**: استخدام لغة بديلة ضمن الأقلية، أو اللغة نفسها، ولكن بلهجة وطريقة مختلفة، مع استخدام إشارات لغوية متبادلة فقط ضمن الأقلية، والسرية، والتضامن بين أفراد الأقلية للتكيف مع الأزمات التي يعتقدون أنها ستهددهم[24].

رابعًا: الحساسية للوصمة **stigma sensitivity** : تميل الأغلبية إلى وضع صور نمطية للأقليات، وغالبًا ما تكون هذه الصور تحقيرية، بينما تملك الأقلية حساسية مفرطة تجاه تنميطها وغالبًا ما يكون سلوكها دفاعيًّا ضد هذا التنميط وضد تثبيت هذه الصور النمطية[25].

خامسًا: الحفاظ على الهوية: اللغة لا تصبح وسيلة للتواصل بل جزءًا من هوية يجب الحفاظ عليها، كذلك التقاليد والشعائر الدينية، حتى لو لم يكن هناك إيمان حقيقي بها، لكنها جزء من الهوية التي يجب المحافظة عليها خصوصا عند الشعور بالضغط أو التهديد[26].

سادسًا: الذاكرة الجماعية مؤسسة على الصدمات والاضطهاد: السرد التاريخي لذاكرة الأقلية مؤسس على ما تعرضت له هذه الأقلية من مصاعب واضطهادات ربما مرت به الأغلبية أيضًا في تاريخها، لكن الأمر لم يتحول ليصبح محور التاريخ كما يحدث مع الأقلية[27].

هذه مكونات عقلية الأقليات تاريخيًّا، لا يتعلق الأمر بأقلية بعينها.

كم منها ينطبق على اليهود في المدينة؟

يهود المدينة: عقل أقلية نموذجي

مبدئيًّا، السبي البابلي لليهود دخل ليكون جزءًا أساسيًّا من ذاكرتهم الجمعية لأنه ببساطة دخل ليكون ضمن نصوصهم الدينية، بعض الأسفار المهمة في العهد القديم أعيد كتابتها في فترة السبي البابلي (مثل أسفار التكوين، التثنية، الخروج، اللاويين، الأعداد) وأخرى كتبت في أثناء السبي (حزقيال وإشعياء)، وأخرى كنتاج لمرحلة ما بعد السبي (سفر دانيال) أو وثقت

---

[22] Simply Psychology. (2023, October 5). *Social identity theory in psychology (Tajfel & Turner, 1979)*. https://www.simplypsychology.org/social-identity-theory.html

[23] Du Bois, W. E. B. (n.d.). *The souls of Black folk*. Project Gutenberg. https://www.gutenberg.org/files/408/408-h/408-h.htm

[24] Allport, G. W. (1954). *The nature of prejudice*. Addison-Wesley.

[25] Steele, C. M. (1997). A threat in the air: How stereotypes shape intellectual identity and performance. *American Psychologist, 52*(6), 613–629. https://doi.org/10.1037/0003-066X.52.6.613

[26] Phinney, J. S. (1990). Ethnic identity in adolescents and adults: Review of research. *Psychological Bulletin, 108*(3), 499–514. https://doi.org/10.1037/0033-2909.108.3.499

[27] Assmann, Jan. (2003). Cultural Memory: Script, Recollection, and Political Identity in Early Civilizations. Historiography East and West. 1. 154-177. 10.1163/157018603774004485.

Alexander, Jeffrey & Alexander, J & Eyerman, Ronald & Giesen, B & Smelser, N & Sztompka, P. (2004). Toward a Theory of Cultural Trauma.

للسبي (عزرا ونحميا)[28]. وهكذا تحول السبي من حدث تاريخي (في القرن السادس قبل الميلاد)، إلى عقيدة تتوارثها الأجيال بعد قرون طويلة. كرست هذه النصوص الدينية الشعور بالحصار والاضطهاد بحيث أصبح الجزء الأهم من الهوية الثقافية لليهود. لاحقًا، وبعد تدمير الهيكل للمرة الثانية على يد الرومان وخروج اليهود إلى مناطق مختلفة في مجموعات قبلية صغيرة تضاعف شعورهم كأقلية معرضة لخطر الفناء.

ولأن اليهودية كانت ديانة عرقية (خاصة بقبيلة واحدة)، ولم تحمل رسالة عالمية (مثل المسيحية والإسلام) فإنها بقيت محدودة الانتشار، ضمن مجموعات قبلية متفرقة تعتقد أنها تنتسب إلى قبيلة واحدة، وتعتقد أيضًا أنها (شعب الله المختار)، لذا فلا معنى أصلًا في أن تهود كل الشعوب لأن هذا معاكس لإيمانها بتفردها وتمايزها (على العكس من الرسالة العالمية للمسيحية والإسلام التي تستهدف كل البشر)، ولهذا فقد بقي عدد اليهود محدودًا ويزداد ببطء بالتكاثر الطبيعي وليس بدخول أفراد جدد إليه، بالتأكيد حدث تهود عبر الزمن، لكنه بقي محدودًا ومعقدًا، والأصل أن اليهود بقوا فئة محدودة العدد، أي أنهم (أقلية) بالتعريف، وهم أيضًا أقلية تعتقد أنها شعب الله المختار.

هذا كله، ومع وجودهم داخل المدينة أو في الحجاز عموما ضمن محيط وثني، شديد التمايز عنهم، منحهم نوعاً من الحصانة من الذوبان في المجتمع الجاهلي. هؤلاء عبدة أوثان، وأقل رقيًّا منهم حسب معايير اليهود، لذا فالذوبان صعب.

لكن عندما يأتي دين توحيدي، دين يحمل رسالة جديدة تصدح بأنها تتمة لرسالة موسى، فالأمر أصبح مختلفًا جدًّا.

لم يعد الأمر أمرَ حق وباطل، صواب أو خطأ.

لم يعد الأمر أمرّ نبيٍّ ذُكِر في كتبهم وبشروا به، بل أسهموا في وعيد العرب به.

لقد أصبح أمر هوية.

عقل الأقلية الذي شكل عبر ألف سنة من الشتات ما كان سيقبل أن يتعرض لخطر الاقتراب من دين جديد يمتلك الكثير من أوجه التشابه معهم.

هنا دقت أجراس الخطر.

اللاوعي الجمعي هو الذي استيقظ، نحن أمام خطر أكبر من السبي البابلي، السبي اضطهاد يوقظ الهوية ويشعل جذوتها، تحدي يفعّل الاستجابة.

أما الدين التوحيدي الجديد، بفورة المؤمنين به وحماسهم، بشخصية النبي الآسرة، فهذا خطر يهدد بالذوبان.

وأمام عقل الأقلية: كل شيء أهون من الذوبان.

****

وعندما خرج عبد الله بن سلام ليشهر إسلامه، برز عقل الأقلية - أو لا وعيها الذي يتحكم بها، ليسقط في التناقض الفاضح للتحيزات المسبقة.

لا مشكلة أن يسقط المنطق أو يظهر الكذب.

المهم أن تحافظ الأقلية على هويتها بوجه خطر الذوبان.

ولو قاد ذلك إلى التهديد بالقتل.

عَنْ صَفْوَانَ بْنِ عَسَّالٍ، قَالَ: قَالَ يَهُودِيٌّ لِصَاحِبِهِ: اذْهَبْ بِنَا إِلَى هَذَا النَّبِيِّ فَقَالَ صَاحِبُهُ: لاَ تَقُلْ نَبِيٌّ، إِنَّهُ لَوْ سَمِعَكَ كَانَ لَهُ أَرْبَعَةُ أَعْيُنٍ، فَأَتَيَا رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَأَلاَهُ عَنْ تِسْعِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ. فَقَالَ لَهُمْ: لاَ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيئًا، وَلاَ تَسْرِقُوا،

---

[28] Friedman, R. E. (1997). *Who wrote the Bible?* HarperOne.
Carr, D. M. (2011). *The formation of the Hebrew Bible: A new reconstruction*. Oxford University Press.

وَلاَ تَزْنُوا، وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالحَقِّ، وَلاَ تَمْشُوا بِبَرِيءٍ إِلَى ذِي سُلْطَانٍ لِيَقْتُلَهُ، وَلاَ تَسْحَرُوا، وَلاَ تَأْكُلُوا الرِّبَا، وَلاَ تَقْذِفُوا مُحْصَنَةً، وَلاَ تُوَلُّوا الفِرَارَيَوْمَ الزَّحْفِ، وَعَلَيْكُمْ خَاصَّةً اليَهُودَ أَنْ لاَ تَعْتَدُوا فِي السَّبْتِ، قَالَ: فَقَبَّلُوا يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ. فَقَالاَ: نَشْهَدُ أَنَّكَ نَبِيٌّ. قَالَ: فَمَا يَمْنَعُكُمْ أَنْ تَتَّبِعُونِي؟ قَالُوا: إِنَّ دَاوُدَ دَعَا رَبَّهُ أَنْ لاَ يَزَالَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ نَبِيٌّ، وَ إِنَّا نَخَافُ إِنْ تَبِعْنَاكَ أَنْ تَقْتُلَنَا اليَهُودُ.[29]

مجلس حراس الأقلية

لكل أقلية حراسها.

حراس هويتها وعقليتها.

قادة يقفون على بواباتها ويزيدون -غالبًا- من سماكة جدرانها، وتحصين أبوابها.

أحيانًا يمكن لهؤلاء القادة أن يتوازنوا، بطريقة تحافظ على الأقلية دون صدام مع محيط الأغلبية.

وأحيانًا يبالغون في ذلك، يحولون الجدران إلى سجن محكم.

وكان عليه الصلاة والسلم يدرك بحكمة النبوة أن مفاتيح الأمر مع هؤلاء الحراس.

الأحبار.

لذلك قال عليه الصلاة والسلام «لَوْ آمَنَ بِي عَشَرَةٌ مِنْ أَحْبَارِ الْيَهُودِ، لَآمَنَ بِي كُلُّ يَهُودِيٍّ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ»[30].

لو....

ولكنهم لم يؤمنوا، بل تعاونوا على ألا يعلن أحد إيمانه كي لا يحدث ما قاله عليه الصلاة والسلام.

لم نعرف غير ابن سلام وحبر آخر هو مخيريق[31].

وآخر هو زيد بن سنعة لم يثبت بحديث صحيح.

وربما هناك منهم مَن آمن ولكن لم يعلن عن ذلك.

عنَّ ثَوْبَانَ مَوْلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَدَّثَهُ قَالَ: كُنْتُ قَائِمًا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَجَاءَ حِبْرٌ مِنْ أَحْبَارِ الْيَهُود فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ فَدَفَعْتُهُ دَفْعَةً كَادَ يُصْرَعُ مِنْهَا فَقَالَ: لِمَ تَدْفَعُنِي؟ فَقُلْتُ: أَلَا تَقُولُ يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: إِنَّمَا نَدْعُوهُ بِاسْمِهِ الَّذِي سَمَّاهُ بِهِ أَهْلُهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اسْمِي مُحَمَّدٌ الَّذِي سَمَّانِي بِهِ أَهْلِي»، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: جِئْتُ أَسْأَلُكَ،

فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَيَنْفَعُكَ شَيْءٌ إِنْ حَدَّثْتُكَ؟»

قَالَ: أَسْمَعُ بِأُذُنَيَّ،

فَنَكَتَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِعُودٍ مَعَهُ، فَقَالَ: «سَلْ»

فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: أَيْنَ يَكُونُ النَّاسُ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ؟ (إلى آخر الأسئلة التي أجابها عليه الصلاة والسلام).

قَالَ الْيَهُودِيُّ: لَقَدْ صَدَقْتَ، وَ إِنَّكَ لَنَبِيٌّ، ثُمَّ انْصَرَفَ فَذَهَبَ.

---

[29] سنن الترمذي: 2733.

[30] مسند الإمام أحمد: 8555.

[31] تاريخ المدينة لابن شبة: (173/1).

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَقَدْ سَأَلَنِي هَذَا عَنِ الَّذِي سَأَلَنِي عَنْهُ، وَمَا لِي عِلْمٌ بِشَيْءٍ مِنْهُ، حَتَّى أَتَانِيَ اللهُ بِهِ»[32]
قال إنك لنبي، ثم انصرف فذهب.
إما أن يكون هذا الحبر هو عبد الله بن سلام نفسه، لتشابه الأسئلة التي سألها.
وإمَّا أن يكون حبرًا آخر فضل ألا يعرف قومه بما حدث.
ربما لأنه خاف أن يقتل.
لكن مجلس الحراس بأغلبيته لم يؤمن.

كان بإمكانهم ألا يؤمنوا، ويبقوا كما هم، كما بقي المسيحيون مثلًا.

لكن عقلية الأقلية عندهم قادت الأمر باتجاه آخر تمامًا.

***

بقيت اليد ممدودة، هذا الموقف المبكر لم يمنع اليد الكريمة من أن تبقى ممدودة.

لم يعتبر هذا الموقف المبكر عدائيًّا حاسمًا، رغم أنه كشف الكثير من المكنونات.

بقي عليه الصلاة والسلام يرسل إشارات التقارب إلى منظومة أهل الكتاب بشكل عام، واليهود بشكل خاص بسبب وجودهم الكثيف في المدينة.

وإشارات التقارب هذه (والتي تركت آثارها الواضحة في الفقه لاحقًا) لم تكن رسائل برغماتية تهدف إلى استمالة اليهود، رغم أن لا شيء في ذلك أصلًا لو حدث، لكنها كانت تعبر بالأساس عن حقيقة القرب بين رسالته عليه الصلاة والسلام، والرسالات السماوية السابقة، عن حقيقة أن مصدر هذه الرسالات واحد، وأن الدين الجديد جاء على خطى الأنبياء والرسل السابقين، بل وأنه أقر بأن كثير مما جاء به كان في كتب أهل الكتاب، إن هذا لفي الصحف الأولى، صحف إبراهيم وموسى، لا إنكار ولا تزييف بل على العكس إثبات للصلة المشتركة والمنبع الواحد.

[32] صحيح مسلم: 315.